ع.ع.س

المسرح في عنق الزجاجة

رسالة دمشق من محيي الدين صبحي

لو كنت احتفظ بما انشر لرجعت الى رسائلي الاولى في «الآداب» حيث تحدثت في مطلع عام (١٩٥٨) عن مسرحية « العادلون » لالبير كامو وعن مسرحيات اخرى يونانية قامت بتقديمها فرق من الهواة الجامعيين . وكان الدكتور رفيق الصبان حديث العودة الى الوطن من فرنسا ففتح بيته الكبير وقلبه الكبير ايضا واحتضن هذه الاشواق الفنية جميعها وراح يعطيها من ثقافته وذوقه وخبرته وصبره ما دفعها راسا الى مقدمة الفرق العاملة في الحقل المسرحي . ولم يتوان الدكتور رفيق الصبان ايضا عن تمويل « ندوة الفكر والفن » هذه بالمال اللازم لانتاج عدد من المسرحيات الجيدة ، وقد عرف كيف يستغل كونه واحدا من ابناء اعرق الاسر الدمشقية في سبيل جلب هذه الاسر الى المسرح بحيث استطاع ان يوازن على نحو من الانماء بين ما ينفق وما يكسب... وهكذا فلم يتم انشاء وزارة الثقافة ومؤسسة التلفزيون بين عامي ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ حتى كانت فرقته جاهزة لان ترفد فرقة المسرح القومي وفرقة التليفيزيون بافضل العناصر التي ما زالت تعمل فيها حتى الان . وكان المسرح القومي حسن الحظ في بداية انشائه فوجد مخرجا بصيرا بالاعمال المسرحية وخبيرا في استثارة مواهب الممثلين وهو الاستاذ هاني صنوبر الذي يعمل الان في وطنه في الاردن . ولا ابالغ حين اقول ان النكسة الاولى للمسرح القومي كانت حين اضطر بخل وزارة الثقافة ـ او تباخلها ـ هذا المخرج القدير الى الرحيل في اواخر عام ١٩٦٢ وكانت النكسة الثانية حين جاءت الى المسرح القومي دفعة من الشبان المتخرجين من جامعة القاهرة ... حقا كانت اختصاصاتهم تتعلق بالعمل المسرحي ، ولكنهم لم يكونوا اهلا لتسنم مكان القيادة فيه ، بل كان من الواجب ايجاد مخرجين كبار من ذوي الخبرة والثقافة ليشرفوا على اعمال هؤلاء الشبان الوافدين ويدربوهم على تمثل العمل المسرحي وتنفيذه وتحقيق الفرص من دراسة الشخصيات وتوزيع الادوار على الممثلين ورسم التجمعات ورصد الخطوات وتخطيط الاوضاع والحاسبة على النبرة واللمحة والبسمة ... الا ان شيئا من هذا لم يحدث بل حدث العكس تماما : فرغ المسرح من المخرجين المتمرسين ووقع ضحية سهلة بين ايدي شبان لا يملكون اكثر من نواياهم الطيبة ومطامحهم البعيدة في عوالم الفن وغير الفن ... وكان لا بد من الصراع على السلطة الادارية ، وكان لا بد من تدخل هذه الجهة او تلك ، وكان لا بد من تكتل الممثلين مع هذا المخرج او ذاك .. فوضى سعت لان تنتظم في اشكال متعددة واسماء متعددة : ما رفد المسرح القومي وجعله يستمر في العمل انه هيئة حكومية اولا ، يستمد وجوده من وجود وزارة الثقافة وحكمة مسؤول واحد فيها يتصف بالصبر وسعة الصدر والحزم ، هو الاستاذ اديب اللجمي معاون وزير الثقافة الذي استطاع ان يهدىء الخواطر وينظم الصفوف المتنافرة ويفرض نوعا من النظام والتناسق بين الاعمال ، ولا يزال الى الان يتدخل كلما احتدم النزاع بين الاطراف المعنية ، كما سبق واشرت ـ في رسالة سابقة ـ الى ما حدث في مهرجان الفنون المسرحية في العام الماضي مثلا والذي قبله .

وما دام قدر للمسرح القومي ان يستمر بغير ارادته ـ ان صح التعبير ـ فكان لا بد له من ان يشحذ قواه ويعتصر من العاملين به خير ما لديهم . وهذا ما كان . فقد شحذت الشدائد والمنافسات والتحديات والمزايدات همم العاملين فيه . بحيث استجمع كل منهم خبرته واضاف اليها موهبته واحساسه العام بالامور فسار المسرح على رجل طبيعية ورجل من خشب مدة تزيد عن الخمس سنوات ، وكانت مدة كافية له لكي يستعيد توازنه ويشكل ملامحه ويأخذ كل مخرج خطا يلائمه ، سواء في الاخراج او في انتقاء النصوص او في انتخاب الممثلين الذين يتعاونون معه .. غير ان هذا الهدوء كان مجرد توازن ظاهري غير قابل للصمود امام اي امتحان . وقد جاءت الهزة المنتظرة عن غير طريق المسرح . هذه المرة جاءت عن طريق الصحافة . فقد اجرت صحيفة « البعث » استفتاء عن المسرح القومي استمر شهرا وكتبت فيه ما يقرب من عشرين مقالة ، كان بين الكتاب ممثلون ومخرجون ونقاد ومتفرجون ورسميون ومسؤولون ومعتزلون .. قال الجميع «لا» للمسرح القومي . قالوها باشكال مختلفة وباصوات متعددة وبصيغ شتى تفاوتت من «لا» صريحة الى « لا » خجول حيية. وكانت النتيجة مرعبة لا بسلبيتها فقط ، بل باجماعها . وهذا ما يضطر اولي الفكر والتدبير الى اعادة النظر في الامور المسرحية على ضوء الاستفتاء ونتائجه .

(١٢ عاما عمر تجربة مسرحنا القومي . واقعه الحالي يحتم ضرورة دراسة تجربته الطويلة . « البعث » طرح الموضوع للنقاش طلبت من معظم المعنيين الساهمين في النقاش ، وترحب باي رأي يصلها) .

بهذه الصيغة توجهت صحيفة « البعث » الى المسهمين في الاستفتاء . فاما الممثلون المستفتون فقد اعلنوا بكل صراحة ووضوح انهم ، بعد ان اعطوا من انفسهم عشر سنوات متلاحقات دون زاد ولا مؤونة ، قد افلسوا او على شفا الانهيار ، لقد نضب معينهم وجف عودهم وامحلت نفوسهم . ولا يملك المرء الا الاسى لهذه الاعترافات الصادقة والساذجة والمباشرة :

« بدا المسرح القومي يخسر جمهوره لانه لم يعد يقدم له شيئا جديدا ... مسؤولية الكاتب المسرحي في قطرنا هي في انفصاله عن المسرح والعمل المسرحي . فانا لا اذكر مرة ان هناك كاتبا مسرحيا عاش معنا واطلع على مشاكلنا ومجريات العمل في المسرح ، ذلك حتى يعرف تماما كيف يكتب للمسرح . وعلى وزارة الثقافة دعم الفرق الخاصة لتخلق جوا من التنافس » .

ثناء دبسي ١٩٧١/١٠/١٤

« ان مسرحنا بحاجة لاختصاصيين في المسرح .. بحاجة الى نقاد وممثلين درسوا في المعاهد العليا ومخرجين متخصصين .. وهؤلاء يكادون يكونون معدومين لدينا ... نحن لا نملك سوى موهبتنا وخبرتنا، لكن هذا لا يكفي . انا واحدة من الفنانين الذين لا يعرفون ، الا في سورية . فماذا ساعطي اكثر مما اعطيت قبل سنة وسنتين وثلاث ؟ الكل يعاني نفس المشكلة » .

منى واصف ١٩٧١/١٠/١٣

« عناصر المسرح القومي مجموعة لا تنقصها الخبرة ولكنها وبكل تاكيد ، بحاجة دائمة للمعرفة والدراسة ... الممثل هو الجزء الاهم من المسرح .. ولكن الظروف المحيطة بهؤلاء الممثلين تجعلهم عاجزين

عن ان يكونوا نافعين ... يحسون بعربة الفن تسبقهم بسرعتها الجنونية ، وهم يلهثون وراءها وحيدين .. يحملون عبء الكلمة وعبء المعرفة وعبء المسؤولية وعبء المواجهة .. بمفردهم . ويشعرون تدريجيا بانهم هم انفسهم سيصبحون في يوم قريب عبئا جديدا، ويا للاسف » .

اسامه الرومانى ١٩ ــ ١٠

فهل يمكن طرح القضية بارهف واعنف من سطور اسامة الرومانى ؟ ان هؤلاء الممثلين الذين انتسبت عنهم هم افضل الممثلين عطاء ومثابرة وجهدا . امدهم الله بروح من لدنه ، فاني انحني لهم احتراما واشعر بالاسى والحسرة لشبان موهوبين صادقين ومع ذلك يدفعون الى الهاوية دفعا ولا يملكون بعد عشر سنوات من انجد المتصل الا الخوف من ان يصبحوا عبئا ...

مع الممثلين كتب المخرجون . حاول كل منهم ان يتحسس مواطن الضعف من خلال عمله اليومي :

« اهم المعوقات في وجه المسرح :

١ ــ عدم وجود مسرح مجهز تجهيزا كافيا .

٢ ــ عدم دخول عناصر جديدة وبعدد كاف .

٣ ــ انخفاض التعرفة بالنسبة الى النصوص ، اذ لا تتعدى (٥٠٠ ل.س.) .

٤ ــ نقص الكوادر الفنية ، فليس في مسرحنا مهندس ديكور او ماكييير » .)

اسعد فضه ١١ ــ ١٠

« ... جميع هذه الاعمال لم تفرض على المخرجين بل اختاروها بملء ارادتهم . اختاروها واقرتها اللجان التي هم اعضاء بها ومنحوا افضل وسائل الانتاج وباشروا تدريباتهم واجروا بعض التعديلات . حذف من النصوص كل ما يمكن ان يفسر تفسيرا محليا ، حذف من الاشكال كل ما له علاقة ببلدنا ووطننا . ومن المؤلم ان تقدم النصوص (نظيفة من كل شيء) كي يفقد المسرح دوره في التحريض وفي التفسير المحلي لاختياره .

اذن هذا الحياد الذي قتل الثورية في المسرح القومي ، هذا الحياد الذي حول المسرح القومي الى مسرح لا علاقة له بما جرى او بما يجري .. هذا الحياد الذي ارادوا له ان يكون ايجابيا فتحول الى بوق ..

وصل المسرح القومي الى حياده بتكليف المخرج بالمراقبة .. وهكذا فعليه ان يكون حريصا جدا عند اختياره العمل وعند تقديمه » .

غسان جبري ٢٢ ــ ١٠

« ان مسرحنا حتى الان قام على المغامرة التي اعتمدت على الموهبة والعناد والايمان .. لقد اثبت مسرحنا ان الموهبة والايمان كافيان لان يخلقا ممثلا ومدرسة للتمثيل ولكننا الان .. وبعد عشر سنوات من الكفاح وصلنا الى وجه الجدار وبدانا نتلمسه .. وصلنا الى عنق الزجاجة .. وبات علينا ان نفكر بطريقة للخروج ...

لقد استطاع المسرح القومي ان يتجاوز عقباته حتى اليوم بنجاح مشهود .. والسنوات التالية التي ستاتينا ستشهد ازماته الاولى ..

استطاع ان يصنع ممثلين .. ولكنه عاجز عن ان يكرر ما صنعه مرة اخرى ... فالمعجزات لا تحدث الا مرة واحدة ..

استطاع ان يصنع قواعد .. وان يثبت اصولا وان يبدأ بسن تقاليد .. ولكن لا زال ينقصه المنهج العلمي الذي لن يتم له الا بوجود معهد علمي للتمثيل .. يدرس هذا الفن على اصوله .. ويشحذ الموهبة ويصقلها ثم يقدمها » .

الدكتور رفيق الصبان ٩٧١/١٠/٢٤

لقد اطلت من اقتباس الدكتور رفيق لانه حكم هام . واهميته تاتي من انه يصدر عن الشخص الذي تولى تاسيس هذا المسرح واكتشاف مواهب كل الاسماء المذكورة من مخرجين وممثلين . فهو « المعلم » بلا منازع . ومع ذلك فان كلام المعلم والمعلم لا يفترق كثيرا عن كلام تلاميذه وتلميذاته : الحاجة الى المزيد من التعلم والتعلم والتعلم .. لقد استسلم الجميع امام هذه الحقيقة واعلنوها بلا مواربة ولا رياء . الناحية الرئيسية التي تفرد بها كلامه ، بالاضافة الى التسليم بالازمة ، هي نبوءته العبقرية بان « السنوات التالية التي ستاتينا ستشهد ازماته الاولى .. » وهي نبوءة علمية تقريبا ، فما دامت العناصر البشرية ستظل تعتمد على موهبها واجتهادها وحدهما فسوف نقع في الحلقة المفرغة ونبدأ من جديد بلا امل . فمن الواجب تطعيم هذه المواهب بالثقافه والعلم . على اسي لا ادري اذا كان افتتاح معهد للتمثيل يحل المشكلة اكثر مما يخلقها : فهل يستطيع المعهد ان يستوعب اساتذ معهد يخرج كل عام دفعات من الفنيين في مختلف اختصاصات المسرح ، وهل يستطيع ان يؤمن لطلابه المستوى التعليمي الرفيع الذي يكفي لاحداث نهضة مسرحية حقيقية ام انه سوف يخرج انصاف متعلمين ، انصاف مثقفين ، من النمط الذي نشكو منه والذي يشكو من نفسه ؟ اذا كان الاحتمال الثاني اقرب الى الوقوع والواقع فدعونا نصرف النظر عن انفاق الاموال في بناء مؤسسة فاشلة وتصرفها في ايفاد الموهوبين من الممثلين المحترفين والهواة والمخرجين ، لكي يتسلحوا بالمعرفة اللازمة والاختصاص العلمي والاطلاع اللازم لرفع مستوى المسرح في القطر . ترى هل تجول مثل هذه الاسئلة في اذهان المسؤولين ؟ لقد نوه وزير الثقافة في مقاله بهذه الناحية خاصة :

« .. اما الشروط الفنية فانا اعترف بان هذه الشروط ليست متوفرة بدرجة كافيه ... ونحن نامل اذا ما ضاعفنا عدد البعثات الفنية للخارج والدورات التدريبية ان نسد هذه الثغرة ، بانتظار قيام معهد للمسرح والفنون الاخرى » .

فوزي الكيالي ١٩٧١/١٠/١٧

من الواضح ان كلام الوزير ، ما دام قد بدأ بجملة « نحن نامل اذا .. » فهو لا يعدو الاماني او في افضل الاحوال ، هو من الاقتراحات التي توضع قيد الدرس . ويؤيد استنتاجي ان مقالة الاستاذ اديب اللجمي معاون وزير الثقافة تخلو من الاشارة الى اية مشروعات او خطط في هذا المجال . فهو قد افتتح المناقشة او الاستفتاء بمقالة من اربع نقاط : (١ ــ الحركة المسرحية في القطر فتية ، ٢ ــ تعتمد على التقدير الشخصي ، ٣ ــ ترتبط بوزارة الثقافة ٤ ــ لا تستطيع الفرق الخاصة ان تنشأ وتستمر الا بمعونة الدولة) . من هذا الاستقرار البسيط ، او « التنجيم » اذا صح التعبير، نستطيع ان نلمس الفرق العظيم بين التخطيط من فوق والتطلعات من تحت ، واذا شئنا ، الفرق بين القاعدة والقمة . فالممثلون الذين يشكلون قاعدة التمثيل المسرحي واساسه لم يطالبوا برفع الاجور ولا بدفع الفرق بين ساعات العمل في ايام العطل او في الليالي الحالكات ... لقد تجاوزوا كل ذلك الى اسمى مطلب يتجلى فيه نكران الذات : انهم يريدون ان يتعلموا وان يطلعوا لكي لا يبيس نسغهم فيتعطل عطاؤهم او يتضاءل . ولو وجد من ينظر الى طلبهم بعين الانصاف لعمل على تلبيته باسرع ما يمكن ، ولتغيرت اوجه الاتفاق والتخطيط بحسب ما يراه اهل المهنة مناسبا . وانا دائما الح على الاهتمام برأي اهل الحرفة لانه يمثل الحاجات العملية الملحة والراهنة .

على ان الاستفتاء لم يتوقف عند هذا الحد ، بل نقد ادلى فيه النقاد بدلوهم فلم يخرجوا عما جاء في اعترافات المحترفين ، وان جاءت آراؤهم اكثر دفة وشمولا ، في بعض الاحيان ، وجمودا ونكرانا في احيان اخرى .

(١ ــ لا وجود لهدف دقيق يسعى اليه المسرح . ٢ ــ اصبح مسرحنا القومي يتبع الموضة . ٣ ــ لجا فنانونا الى رؤية المسرحيات في الخارج واخذ صور عن ديكورها وملابسها ومناقشة مخرجها وقراءة

ما كتب عنها . ٤ ـ استطاع المسرح القومي ان يضم حوله جمهورا لا يتعدى البضعة الاف ، فهل خلق من اجل هؤلاء فقط ؟ ٥ ـ فشلت كل التجارة ـ المسماة خطأ ـ المسرح الشعبي) .

الدكتور سلمان فطايه ١٩٧١/١٠/٢٨

(ولد مسرحنا القومي بلا مختصين ولا تقاليد ... وليس من سبيل لتطوير تجربته الا بالتخطيط الذي يستدرك ثغرات الماضي ويرسخ هوية المسرح الطليعي الذي نريد) .

جان الكسان ١٩٧١/١٠/٢٧

(بين (٥٤) مسرحية ، هناك سبعة نصوص سورية فقط . اذا استثنينا منها نصين كوميديين ضعيفين وجدنا ان الباقي عبارة عن خمسة نصوص ليوسف مقدسي وعتي كنعان وحكمت محسن واحمد يوسف داوود وعلي عقله عرسان ... وغالبية هؤلاء دخلوا المسرح في زيارة ـ عدا الاخير منهم ـ بينما يتراوح نتاجهم الاساسي بين الشعر والصحافة والادب .

... ما نريده لمسرحنا القومي هو ان يصبح مدرسة للنص الجديد والممثل الجديد والمخرج الجديد .. ؟

رياض عصمت ١٩٧١/١٠/١٢

احكام النقاد هذه تتوجه في معظمها الى موضوعين : الى المخرجين الذين يقتبسون ـ وهذا طبيعي في رايي ـ والى الكتاب المحليين لاشهار افلاسهم ، اسوة بالممثلين . والناحية التي ذكرتها منى واصف يؤكدها الاحصاء الذي اورده رياض عصمت ، ويعللها ما ذكره اسعد فضة من ان ثمن المسرحية لا يتعدى الخمسمائة ليرة سورية ولست ادري كيف يمكن اقناع الكتاب بالانصراف الى العمل المسرحي والانخراط في جو المسرح ما داموا في تحصيل رزقهم يعتمدون على وظائف بعيدة عنه . الوحيدان اللذان اتيح لهما ان يعملا في المسرح هما علي عقله عرسان ، وهو مؤلف مكثر ودؤوب ، وسعد الله ونوس الذي يعتمد على شهرته اكثر مما يعتمد على النصوص التي يرميها في السوق . وقد عالج تطور المسرح وتطور علاقته بالجمهور معالجة واعية نحب ان نختتم بها هذه الرسالة :

« العاملان الاساسيان اللذان حددا طبيعة نشاة المسرح القومي هما :

« اولا ـ الهوية الفكرية والاجتماعية للقائمين على المسرح آنذاك باعتبارهم جزءا من الطبقة القوية السائدة التي تستطيع ـ ولو لم تكن في الحكم ـ ان تفرض ثقافتها ونمط تفكيرها .

اما العامل الثاني فهو هوية وزارة الثقافة نفسها كمؤسسة مهمتها ان تقدم خدمات الثقافة لهذه الطبقة بالذات .

هذان العاملان حددا نوعية الزبائن ومطالبهم مما جعل المسرح القومي « مجرد جسر بين المسرح الاوروبي بمعناه البورجوازي وبين بيئتنا التي لم تستطع ان تبلور لها مسرحا » .

ثم حدثت ثورة اجتماعية ... « فتغير مواقع القوة الاجتماعية اصبح حقيقة ضاغطة او التوجيه الايديولوجي النظري بدأ يترسخ ويحاول قولبة الثقافة وفقا لرؤيته ومنطلقاته ... ولهذا صار ضروريا ان يفكر المسرح القومي جديا في تغيير جمهوره » .

لكن تغيير الجمهور عملية معقدة تستوجب عدة شروط :

١ ـ وعي يستطيع ان يحدد هوية الطبقات التي يريدها جمهورا لمسرحه .

٢ ـ ان يتفق المضمون الفكري للمسرح ـ او للقائمين عليه ـ مع المصالح الحقيقية لهذا الجمهور .

٣ ـ ان تمتلك القدرة والوسائل اللازمة للتفاعل بشكل جدي ومستمر مع هذا الجمهور .

« ان ارادة تغيير الجمهور لدى المسرح القومي بقيت في اطار الاماني . ولم تستطع ان تتجسد عمليا بصورة ايجابية في علاقة جديدة متطورة . ولذلك بدأ يخسر جمهورا دون ان يكسب ما يعادله . وبدأ يفقد تماسكه الاول لانه اراد توظيف نفس اساليبه القديمة في العمل والتخطيط لاهداف جديدة لم تتوضح تماما لديه . فاصبح يسير بين بين .. مترددا مضطربا ... عاجزا عن حسم القضية » .

دمشق — محيي الدين صبحي

السودان

رسالة من حسب الله الحاج يوسف

واقع الادب السوداني

طلبت من الاستاذ عبدالله حامد الامين رئيس الندوة الادبية في السودان أن يحدثني عن قضايا الادب السوداني ومشاكل النشر ، فادلى الي بما يلي :

الاستاذ عبدالله الامين

ظلت الحركة الادبية في السودان تعاني من المحلية الضيقة ، ومن انعدام امكانيات النشر زمنا طويلا . اما المحلية فكان سببها انعزال السودان نفسه عن الحركة العربية ، والحركة العالمية قبل الاستقلال. كانت المرحلة مرحلة تحرر من ربقة الاستعمار ، واتجه الادب حينذاك الى التعبير عن قضايا تلك المرحلة وشعاراتها في اشكال بسيطة مباشرة . انتشر الشعر السياسي ، مرتبطا بالمناسبات الوطنية بقفية الكفاح ضد الاستعمار ، وبالتعبير عن دور الفئات والطبقات الجديدة ، خاصة مشاكل الجماهير الكادحة ، وظهرت الاقصوصة القصيرة لتصور بعض الجوانب الاجتماعية من هذه المشاكل ، في الوقت الذي انصرف الشعر الى الجانب السياسي المباشر منها .

حصيلة هذه الفترة اذا قيمناها فكريا ، وفنيا ، نجدها مفرقة في المحلية ، وذات مستوى ضعيف في الاعم الغالب ، خاصة الانتاج المرتبط بالمنابر الحزبية التقليدية ، والشاهد على ذلك ان كثيرا من ادب تلك الفترة ، والذي كان يجد رواجا عظيما في وقته ، لم يعد يمثل الان تراثا ذا قيمة فنية تتناسب مع ما كان له من رواج، وكمثال لذلك اذكر بالتحديد ديوان « هتاف الجماهير » للشاعر حسن طه، وديوان « حرية وجمال » لجعفر حامد البشير ، وكلاهما كان له صولة وجولة في منابر السياسة ، وايضا شعر علي نور شاعر « مؤتمر

الخريجين » وهو المؤتمر الذي ضم صفوة المثقفين في وقته . ثم انتكس بفعل الخلافات الحزبية .

هذا ما كان من واقع الشعر ، اما القصة القصيرة التي بدات تنتشر بعد الحرب الثانية ، فقد نشات في احضان الواقعية الاشتراكية باضيق نطاق ، وابأس صورة ، وكتب اكثر كتاب المرحلة عن ماسحي الاحذية ، وباعة السجائر ، والبغايا ، واعادوا في ذلك وكرروا ، دون مضمون اجتماعي عميق ، اذ كان كل همهم تلطيخ هذه النماذج البشرية البائسة بحبر المطابع ، بدلا من تراب الارض التي يعيشون عليها . وكتب بعضهم عن العمال من زاوية الهتاف السياسي والنبرة الاخلاقية ، واوضح مثال من ذلك قصة « مات حجر » لمحمد سعيد معروف ، والتي روج لها النقاد السياسيون في وقتها ، كبادرة عظيمة من بوادر الادب الواقعي الجديد . ولكن القصة كانت تقريرا غير منسق ، وغير منمق لجانب من حياة عامل مات في النهاية ، ومذكرات « أغبش » لعبدالله رجب التي وجدت ايضا رواجا في وقتها من نقاد الواقعية السياسية ، اعاد صاحبها نشرها منذ وقت قريب بدون اي رواج ، ذلك لان مستوى الاجيال الشابة من الكتاب والقراء ارتفع كثيرا ، واتسعت الافاق ، وتغيرت المفاهيم البدائية عن الواقعية الاشتراكية ، وعن مضمون شعار « الادب للحياة » . كل ما تبقى من تراث تلك الفترة اصبح سجلا تاريخيا يهم الدارس والباحث في نشاة الادب السوداني الحديث ، ولكنه لم يعد مما ينفع الناس ويمكث في الارض .

هذا بالطبع عن الادب السوداني في فترة ما قبل الاستقلال ، والى ما بعد الاستقلال (١٩٥٦) الى فترة اخرى غير طويلة .. حيث بدات تتبلور بعد ذلك الاتجاهات الادبية الحديثة ، شعرا ونثرا ، حين انصرف الادباء الى القضايا الفكرية والاجتماعية للمجتمع الجديد ، الذي واجه قادته ، وسياسيوه ، بعد الاستقلال معركة التحدي الحقيقية ، والتي تتمثل في التنمية الاقتصادية ، والاجتماعية ، وفي رفع التعليم ، والثقافة في البلاد . وفي استجابة لمطالب الجماهير المزمنة، والعاجلة، وتفتحت الاذهان من ثم على تجارب الامم الاخرى ، في العالم الثالث، وفي الدول الحديثة عامة ، وانفتح الباب الذي كان مغلقا امام الثقافات والآداب العالمية على مصرعيه ، خاصة وان السودان اصبح عضوا بارزا في الاسرة العربية، وفي القارة الافريقية وامتدت علاقاته وتشعبت الى انحاء العالم شرقا وغربا .

كان هذا مدعاة بالطبع لظهور ، ونمو المدارس الفكرية المعاصرة، فتطورت المدارس الاشتراكية ، وظهرت الاتجاهات الوجودية ، وتطلع الناس الى حرية الفكر ، بحثا ، وحوارا ، وتضخم الى حد كبير قطاع المثقفين بمختلف فروع المعرفة والعلوم ، وبرز منه كتاب ونقاد في كل هذه الفروع . وهذا ما جعل مهمة الاديب خطيرة وعسيرة ،اذ انه لم يعد يستطيع ان يعيش على استجداء مشاعر البسطاء او استدراجهم بالهتاف ، فالقصة اصبحت تقديم النموذج من الانتاج الابداعي الذي يرضي اعلى المستويات ، وارقى الاذواق ، من زاوية ارستقراطية اجتماعية ، ولكن من زاوية فنية وموضوعية علمية.مع توثق وعمق الارتباط ايضا بقضايا الجماهير ، والتعبير عن متطلبات المرحلة داخليا ، وخارجيا ، لانه لم تعد اهتمامات الاديب السوداني في هذه المرحلة محلية ، او وطنية ضيقة ، فقضية المصير العربي تاتي في مقدمة اهتماماته ، كارتباط ازلي لا يتزعزع ، يؤثر عليه تأثيرا مباشرا ، ويتاثر به بنفس الدرجة ..

هذا ما جعل كثيرا من الانتاج الشعري الحديث يكرس لقضية المقاومة الفلسطينية والدفاع عن الارض العربية المحتلة ، كما جعل كثيرا من الكتاب والكتابات النقدية من السودان توجه لى هذه الناحية ويوضع في ميزان النقد في مجالات النشر والاعلام المحلية ،كل الكتاب والشعراء العرب الذين يتناولون هذه القضايا من نتاجهم المنشور . والنقد الذي تعرض له الشاعر نزار قباني في بلادنا منذ النكسة تاكيد لانتماء الحركة الادبية السودانية الى القضية المصيرية ، وحرصها على ان تؤدي دورها بفعالية والتزام .. من ناحية اخرى فان الاديب السوداني بحكم الموقع الجغرافي والتاريخي للشعب السوداني ، وبحكم تكوين هذا الشعب يصبح معنيا باكبر درجة ، بقضية التحرير الافريقي، ويحمل لواء العروبة الحضاري في هذا الجزء من القارة .. من هنا فقد جعل الشعر السوداني خاصة يتناول قضية الانسان الافريقي الجديد ، مثلما عني بمصير الانسان العربي الجديد ، والنماذج الدالة على ذلك كثيرة لا تحضرني كلها ، ولكني اذكر « زنزباريات » محمد المكي ابراهيم، في ديوانه « أمتي » و « لومومبيات » صلاح احمد ابراهيم في ديوانه « غضبة الهبباي » وقصائد جنوب السودان التي نشرها محمد المهدي مجذوب في ديوانه « نار المجاذيب » . وبعض قصائد محمد عبد الحي ، والنور عثمان ، وكلا الاخيرين قد اشترك في الدعوة لمدرسة « الغابة والصحراء » في الادب العربي السوداني ، والتي تمثل لقاء العروبة بالزنجية على هذه البقعة من الارض ، ولا ننسى بالطبع معظم شعر (الفيتوري) والذي اتجه في بدايته الى افريقيا اتجاها عنصريا ، ثم حاول بعد كثرة النقد ان يفلسف القضية بصورة اكثر انسانية مع الابتعاد عن الهتاف الذي كان يصرخ به من « اغاني افريقيا » .

اما القضايا العربية ، ومعارك المصير ، فمطروحة في كل انتاج الادباء والشعراء السودانيين ، لا يكاد يخلو منها ديوان شعر ، او مجموعة قصصية ، او أي انتاج آخر .. ودوننا دواوين الشعراء : جيلي عبد الرحمن ـ محي الدين فارس ـ تاج السر الحسن ـ سيد احمد الحاردلو ـ مبارك حسن الخليفة ـ محمد المهدي مجذوب . ومن منطلق عربي وافريقي عالج هؤلاء الشعراء قضايا النضال الآسيوي الافريقي ، وقضايا التحرر العالمي بصورة عامة .

اما النتاج القصصي فمن الصعب شموله بنفس الدرجة من التعبير عن القضايا التي ذكرنا ، وذلك لسببين ، اولهما : قلة حصيلة القصة حتى الآن ، والتي لم يتجاوز المنشور منها اصابع اليدين من المجموعات القصصية القصيرة ، وعددا اقل من ذلك من الروايات الطويلة . وثانيهما : ان المشاكل الاجتماعية الملحة مع ضرورات حركة التطور والتبلور في المجتمع الجديد ما تزال وستظل الى امد طويل شغل كتاب القصة الشاغل . ومحور كل انتاج ، كما ان القصة ظلت محصورة في نطاق النشر المحلي ، ومجالاته ضيقة ومحدودة ، حتى لنرى تأثير ذلك في القصة القصيرة عندنا واضحا في صغر حجم هذه القصة الى ادنى درجة ، ولانها بدون ذلك تواجه صعوبة النشر ، والكاتب القصصي الوحيد الذي كسر الطوق وخرج من القوقعة هو الطيب صالح ، واكاد اجزم ان هذا الروائي الكبير لو كان موجودا في السودان لظل مغمورا كغيره في دائرة الانغلاق ، دون ان يحس به احد في الخارج الا القلة القليلة جدا من المعنيين ، والمهتمين بشؤون الفكر والادب في السودان . ولكن لحسن حظ الطيب صالح والقصة السودانية من بعده، انه كان وظل ينتج من دائرة الضوء الكبرى من موضع عمله الاعلامي الرحيب في العاصمة البريطانية ، ويظل من يمكن ان ينافس او يجاري الطيب صالح من كتاب القصة الجدد مغمورا بالداخل ، واذكر على راس القائمة الروائي الشاب ابراهيم اسحاق ابراهيم ، الذي صدر له منذ ثلاث سنوات روايته الاولى « حدث في القرية » ، كما صدر له منذ ثلاثة اشهر روايته الثانية « اعمال الليل والبلدة » . واذا كانت « موسم الهجرة الى الشمال » هي قمة اعمال الطيب صالح ، فان رواية « حدث في القرية » لابراهيم اسحاق ، وهي تمثل موسم هجرة الى غرب السودان ، لا تقل نضجا فنيا ، ولا وعيا انسانيا عن رواية الطيب صالح ، غير ان الطيب صالح يتفوق عليه بفخامة العبارة

والشاعرية ، ولعلي اجد فرصة قريبة لاتناول هذه الرواية ، ورصيفتها الاخرى بالعرض والتحليل والمقارنة على صفحات هذه المجلة .

ان ازمة النشر في السودان ، وانعدام امكانيات التوزيع من الداخل الى الخارج ، ظلت سببا مباشرا في عدم وصول الادب السوداني الى القارىء العربي ، كما كانت سببا في اختلال تقييم هذا الادب خارج السودان ، ويكفي ان اذكر ان اكثر الذين اشتهروا من ادباء السودان هم ممن عاشوا خارجه ، أو ممن وجدوا فرص الاتصال المباشر بدور النشر والصحف العربية ، واحجم الكثيرون ممن لم يجدوا الطريق كفيرهم عن النشر في الخارج ، لانشغالهم في نشاطات محلية ، او تهيبا ، أو تواضعا عن اقتحام مجالات لم يدعهم اليها أحد ، وتبعد بينهم وبينها الشقة . ويكفي أن نقول ، ان شاعرا مثل محمد المهري المجذوب ظل حتى وقت قريب ، ولعله لا يزال مجهولا في العالم العربي، مع انه اكبر شعراء السودان ، واكثرهم ابداعا .. ولا يقع اللوم – في اعتباري – على دور النشر والصحافة العربية وها هي على سبيل المثال مجلة « الآداب » تفتح صدرها منذ انشائها للكتاب والشعراء من جميع ارجاء العالم العربي ، ومن خارجه ، ولكن للاسباب التي ذكرنا آنفا لم تعكس الصحافة العربية الوجه الحقيقي للادب السوداني، كما ينبغي .

ان هذه مسؤوليتنا بالطبع ، وهي عقدتنا ايضا .. ونحن نبحث الآن عن وسيلة مباشرة للارتباط بالنشر العربي بطريقة منظمة .

ان كثيرا من دور النشر في (بيروت) وكثيرا من الصحف العربية ، وكذلك ، وكذلك مؤسسة النشر (بالقاهرة) ترحب – كما اعلم – بالانتاج السوداني ، ولكن النشر في بيروت يواجه مشكلة الاختيار أولا ، ثم حفظ حقوق المؤلف ثانيا .. والنشر في القاهرة يواجه ازمة التاجير الاداري ، ورداءة التوزيع ، وهذا مما يقلل من حماسة الكتاب السودانيين للنشر في الخارج ، ويجعلهم اكثر اعتمادا على الامكانيات المحلية على علاتها .

لقد طبعت المؤسسة العامة بالقاهرة في العام الماضي مجموعة قصصية للطيب زروق عنوانها « الشيء الذي حدث » ، بعد ان ظلت في انتظار دورها في الطباعة لمدة عامين ، وبعد خروجها ، فان الذي حدث حقيقة ، هو ان هذه الرواية لم يصل منها أي عدد من النسخ الى السودان منذ العام الماضي ، وحتى كتابة هذه السطور ..!

ان الاهتمام بحل مشاكل النشر في السودان ظل يزداد يوما بعد آخر . بوسائل متعددة ، فقد ظهر في الخرطوم الوكلاء ، والوسطاء ، الذين يتعاملون مع بعض دور النشر ببيروت ، ولكن اكثرهم غير متفرغ ، وبعضهم يعمل على اسس تجارية بحتة ، ويقبض الثمن مقدما ، ويبحث عن أسم لامع تروج به بضاعته .. وهكذا يظل الكتاب الواعدون من الشباب في حالة ضياع وموت حقيقي .

ولعل اكبر عمل منتظم في حقل النشر انشىء في السنوات الاخيرة هو قسم التاليف والنشر بجامعة الخرطوم ، وهو قسم يملك امكانيات واسعة ، ولكنه ومعه مطبعة الجامعة يظل مشدودا الى العمل « الاكاديمي » الذي يستغرق اكثر جهده ، أما دوره في مجال النشر العام ، فقد قام باصدار بضعة كتب من التراث الادبي السوداني وبعض القصص ، والدواوين الشعرية لحديثة ، بشكل متقطع وضيق. وعقدة هذ القسم انه يكلف نفسه الكثير لتقديم طبعات فاخرة ، وبعض القصص ، والدواوين الشعرية الحديثة ، بشكل متقطع وضيق. قيمة الورق الفاخر الذي طبع عليه ، لانه تم نشره للمعان اسم المترجم اكثر منه لقيمة المادة المترجمة ، وهذه ازمة .. والقارىء السوداني يجد صعوبة في الحصول على كتب هذا القسم ، بسبب ارتفاع اسعارها ، والتي تزيد اضعافا عن قيمة الكتب المنشورة الواردة من بيروت ، او القاهرة .. فاذا كان هذا شأن القارىء السوداني ،فكيف يمكن للقارىء العربي ان يحصل على هذه الكتب وخاصة اذا اضيف اليها تكاليف النقل ، واجور التوزيع ؟.. هذه ازمة اخرى !.

اننا نامل في ان يتلافى المشرفون على هذا القسم الوليد كل اوجه النقص هذه ، حتى يسهموا اسهاما فعالا في تنشيط حركة التاليف والنشر داخليا ، وفي تقديم الادب السوداني والثقافة السودانية خارجيا .

لقد ظل الادباء من السودان ينتظرون ، والحالة هذه ، ان تهتم الدولة بقضايا الفكر، ومشاكل التاليف والنشر، وكانت مساهمة الدولة دائما ضعيفة ، او شبه منعدمة ، اذا ما استثنينا تجربة لجنة التاليف والنشر بوزارة الاعلام والثقافة ، والتي انتهت ليحل محلها الآن المجلس القومي الجديد لرعاية الآداب والفنون .. هذا المجلس الذي ظل امدا طويلا امل كل الحادبين على الحركة الادبية والفنية في السودان ، على اعتبار انه سيكون المحور لنشاط هذه الحركة ، ولتنظيم اوجه العناية بها . ورعاية كل العاملين في الحقل الادبي والفني .

ان الزمن ما زال مبكرا امام المجلس ، لانه لم يمض على انشائه اكثر من خمسة أشهر ، وهو مشغول حتى الآن بتنظيم كيانه ، وادارته وبتدبير مخصصاته التي تمنحه القدرة على الحركة (!) والمامول ان يبتعد هذا المجلس عن عقد الروتين الحكومي ليلتحم التحاما عضويا مباشرا باهتمامات الحركة الادبية ، واحتياجاتها الملحة ، والقضية الاولى التي تواجهه هي قضية النشر . اذ ما يزال الكثير من نتاج ادباء السودان ينتظر الفرصة التي تسنح له للخروج الى النور . كما ان قضية التبادل الادبي والثقافي مع البلدان العربية الشقيقة تأتي في مقدمة المهام التي يواجهها ، وتأتي بعد ذلك مسألة تنشيط دور الثقافة المحلية ، ودور الفنون ، والجمعيات الادبية ، وخطط المجلس وبرامجه – كما أعلم – تحتوي على كل ذلك .

فـي اعدادنـا القادمة

ابحـاث

بيرم التونسي والوجدان الاشتراكي	رجاء النقاش
يوسف الشاروني في رحلة الدورة	سامي خشبة
الاقصوصة العربية في الارض المحتلة	صبري حافظ
هاملت وتجربة الاقتراب من شكسبير	محيي الدين اسماعيل
دروب الادب الجديدة في العالم	ترجمة عايدة م. ادريس

قصائـد

قصيدة جديدة	الدكتور خليل حاوي
قراءات اخرى	فوزي كريم
عن رجل اضاع شيئا ما	احمد يوسف داوود
من يوميات سيف في بلاد الروم	عبدالعزيز المقالح
بضع كلمات للحديث عن فراس	محمد القيسي
الصيف ودورة المنجل	محمود علي السعيد

قصص

الصوت والصمت	سليمان فياض
السلالم الضيقة والتنين	ادوار الخراط